الجهاز الاصطلاحي والمنظومة المفهومية بين الجاهلية والقرآن الكريم

The Idiomatic Device and the Conceptual System between Aljahilyya (Pre-Islamic era) and the Holy Quran

د/ عبد الوهاب حنك*
جامعة محمد الصديق بن يحيى- جيجل (الجزائر)
abdelwahabha@hotmail.com

تاريخ الوصول: 2020.12. 02 تاريخ القبول: 2121.01.20 تاريخ النشر: 2021. 03.04

ملخص:

يعالج هذا البحث إشكالية ما يسمى بالجهاز الاصطلاحي والمنظومة المفهومية في العربية بين الجاهلية والإسلام، باعتبار المدونة القرآنية التي استمدت كثيرا من مصطلحات الجاهلية، وحمَّلتها بمفاهيم مستحدثة فحملتها، ولذا تظهر أهمية هذا في الكشف عن مكامن هذا الإعجاز اللغوي للقرآن قبل الوصول إلى أنواع أخرى من الإعجاز، إن الملاحظ للجهاز الاصطلاحي المستمد من الجاهلية، أو من مدونتها اللغوية– الشعرية إن أمكن القول– سيكشف عن نتائج خلُص إليها هذا البحث، أهمها تلك التي قمة الإعجاز اللغوي المتمثل في دحض مفهوم جاهلي، وإثبات آخر قرآنيا للمصطلح نفسه.

الكلمات المتاحية: المنظومة المفهومية، الجاهلية، القرآن الكريم.

Abstract:

This research deals with the problem of the so-called conceptual device and conceptual system in Arabic between Jahiliyyah and Islam, considering the Qur'anic code that derived a lot from the terminology of Jahiliyyah, and loaded it with new concepts. The importance of this appears in revealing the sources of the Qur'an linguistic miracle before reaching other types of miracles. The observer of the terminological device, derived from the Jahiliyyah, or from its linguistic or poetic code, will reveal the findings of this research, the most important of which are the top of the linguistic miracle represented in refuting the Jahili (pre- islamic) concept, and vindicating the same term by the Quran.

Keywords: Conceptual system, pre-Islamic era, the Holy Quran.

مقدمة:

مناطُ القرآن الكريم أنه جاء مُعجزا، ولا شك أن هذا ملحوظٌ في تطور العلوم اللُّغوية بعده (المعجماتُ اللغوية والاصطلاحية مثالا لا حصرا)، وقبل ذلك حَمَلَ القرآن اللغة من الشعر الجاهلي وحَمَّلها مفاهيمَه إعجازا وبلاغة، وللوهلة الأولى سيبدو الأمر بسيطا، لكن ذلك سرعان ما يزول في ذهن المطَّلع على مفردات الشعر

* المؤلف المرسل

الجاهلي ومعانيها _الخفية أحيانا_ والتي أوردها فضلُ كثير من المستشرقين، ثم على مفاهيم نفس المفردات في القرآن العظيم، ليُتكشَّف عن الارتقاء المفهومي بين هذا وذاك.

ويبقى الكشفُ عن خصوصيات هذا الانتقال، وعن أمر هذه اللغة المشتركة قارا في كثير من النماذج الشعرية الجاهلية، ولغة المعجمات بعدها، ويمكننا هذا من قول أمر واحد مفاده: إن القرآن لم يأت معجزا من الناحية الدينية فقط كأمر معنوي مجرد، وإنما أيضا من الناحية اللغوية، ولعل أبرز أوجه إعجازه هو هذا الارتقاء في المفاهيم، بطريقة أخرى إنَّ التحديث (Update) الذي مارسه القرآن على الجهاز الاصطلاحي الجاهلي ومنظومته المفهومية فائق الدِّقة، ولا يمكن الكشف عليه سطحيا.

1/ لغة الشعر الجاهلي:

للكشف عما أسميناه "الارتقاء المفهومي" وجب أن نتطرق إلى نماذج مصطلحات دينية سنجد أنها تتشارك بين الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، ووجبَ أن نتطرق إلى لهجات انتقلت من ألسنة قبائل عربية، إلى لسان القرآن الكريم، ولم يُغير فيها القرآن شيئا، وإنما لقد كانت غاية القرآن ههنا حينما نتحدث عن ما يسمى المصطلحات والمفاهيم، هو إعجاز العرب الجاهليين عن طريق تسمياتهم نفسها، أو قُل عن طريق جهازهم الاصطلاحي المصنوع بأيديهم وألسنتهم، ولكن الفارق ههنا هو إضفاء الدلالة الاصطلاحية الجديدة على هذه التسميات فيما جاء به القرآن، إنه شيء مثير للدهشة أن يُعجز الله العرب الجاهليين من خلال لغتهم التي صنعوها، ليس فقط أن يدهشهم فيكتموا ذلك في صدورهم، إنما أن تعترف ألسنتهم، وأن تُثار في نفوسهم الدهشة قولا واحدا.

لعلَّ أول من تطرق إلى هذا الأمر من خلال كثير من المصطلحات التي تغيرت مدلولاتها بين الجاهلية والإسلام، هو أبو حاتم الرازي في كتابه:" الزينة في الكلمات الإسلامية" وهنا لا بد أن نُشير إشارة توضيحية إلى أن الرازي هو أول من كسر ذلك التَّحرج من المساس بألفاظ القرآن الكريم الذي اتّسم به العلماء المتقدمون، وإن ما يَهُمُّنا ههنا للإبانة عن فكرة الارتقاء المفهومي هو ما فعله الرازي في كتابه، حينما « جمع في كتابه بعض الأسماء التي وردت في القرآن والألفاظ التي اصطلح عليها المسلمون، وذكر معانيها ومدلولاتها الجاهلية والإسلامية»[1]، ولا يعني هذا خلو القرآن الكريم من التطابق المفهومي لمصطلحات اشتركت بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، بل إنا لنحسبها كثيرةً يصعب إذ ذاك على المريد، عدُّها وإحصاؤها.

مَثَّل "انتقالُ الدَّلالة" بين الجاهلية والإسلام وجها من وجوه إعجاز القرآن، من الناحية اللغوية إن حاولنا تخصيص الأمر، لكن هذا الأمر لم يكن مطروقا، أو متداولا على ألسنة المتخصصين المحدثين، ليس جهلا، وإنما نحتمل ذلك من قبيل التَّحرج والخوف الذي كان عليه القدماء قبل أن يفك لهم الرازي طريق الخوض في القرآن الكريم، ومُدارسة ألفاظه. التي نحسب أنها أيقضت ذلك التفكير، وتلك الاستبانة لولوجها فيما يسمى الجهاز الاصطلاحي للقرآن الكريم ومنظومته المفهومية، فخضعت لقوانينهما، ومعلوم أن هذه الألفاظ (المصطلحات)

المقصودة بالذكر ههنا، قد كانت تصُول في منظومة مفهومية اعتباطية، لا يحدُّها إذ ذاك حد، ولا تخضع لقوانين الارتباط الدلالية بين ما هو قبل وما هو بعد، تلك القوانين التي تحكم أية منظومة مفهومية من خلال ترابط تسمياتها الاصطلاحية فيما بينها مفهوميا، وذلك في شكل هرم اصطلاحي قاعدته هي التسمية الأخص، وقمَّته هي التسمية الأعم التي تتشكَّل كل تلك التسميات مبنى ومعنى لتكوينها، وما بين هذا وذاك يُقام هذا الهرم باصطلاحات متعددة، يرتبط كل مصطلح منها مفهوميا بما قبله من تسمية، وكذا ما بعده، في شكل شبكة من العلاقات المفهومية التي يبدو أنها تلتئم لتشكّل قمة الهرم الاصطلاحي أولا، ثم لتشكل "عِلْمَهَا" الذي تنتسب إليه، إذا ما وضعنا في الحسبان أن قيام علم من العلوم يشترط أساسا أن تقوم مصطلحاته أولا لتشكل ثالوثا ثابتا مع كل من المادة المعرفية والمنهج.

لقد تشكلت كل تلك العلوم العربية تحت هذه الراية، على الأقل من ناحية أجهزتها الاصطلاحية، ابتداء بالعلوم المقصودة (الدينية) وانتهاء بعلوم الآلة (اللغوية) كالنحو، والصرف، وفقه اللغة، وغيرها، وإننا لنجد تماسكا لا مثيل له في علوم كهذه من حيثُ ما قلناه سابقا، فالبنية في النحو تقارب البناء، والحذف يؤدي إلى التقدير، ومنهما إلى التأويل مناط النحو كافة، وهكذا.

2/ خصوصية الجهاز الاصطلاحي العربي:

لم يكن في الجاهلية ما يسمى جهازا اصطلاحيا، فالمصطلحات آنذاك كانت تدور في فضاء مفتوح، فضاء أقل ما يقال عنه أنه كان دينيا (نتحدث ههنا عن المصطلحات الدينية التي أوردها الشعراء الجاهليون، والديانات التي كان يتخبط فيها هؤلاء، الحنيفية/ الوثنية/ المسيحية ...) من مثل أمية بن أبي الصلت، نضيف إلى ذلك من الأسباب أن الساحة العربية قبل الإسلام قد خلت تماما مما يسمى علما قائما بذاته له أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، اللَّهم إلا فيما يخص الشعر الجاهلي (ديوان العرب) الذي كان يجمع في صيغة اعتباطية حياة العرب بكل ما تحمله من تقنيات (مصطلح تقني)، كل هذا وصفه عبد الصبور شاهين في "عربية القرآن" بقوله: «ولما كان وجود العربية في الإسلام وجودا غير مدون في معاجم، فإن كثيرا من ألفاظ اللغة قد اندثر مع اندثار كثير من الأشعار التي تلاشت لقصور الرواية، وتشتت القبائل، وضعف الاتصال فيما بينها»[2]

من هنا؛ كان لا بد من القول بالارتباط الوثيق بين ما يسمى الجهاز الاصطلاحي، وبين مصطلح العلم، ذلك أن التسميات العلمية لا تشكل جهازا اصطلاحيا ومنظومة مفهومية إلا تحت مُسمَّى العِلم الواحد، حتى أن المصطلح مشروط بمفهوم واحد في حقل معرفي واحد، حسبما تقره منهجيات وشروط المصطلحية المعاصرة.

3/ في اسم الله:

قال عز وجل في القرآن الكريم: ﴿ **أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ** ﴾ الأعراف 71.

وقال جلَّ جلاله:﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾يوسف40.

وقال أعز من قائل: ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ**﴾النجم 23.

جاء في كتاب الله والإنسان في القرآن للمفكر الياباني توشيهيكو إيزوتسو، الذي ترجم معاني القرآن الكريم إلى اليابانية، أن لفظ الجلالة "الله" قد كان موجودا حتى في الجاهلية، أو لنقل تحت معنى ما يسمى مظاهر الشرك، أو الوثنية، وهذا ما نعتقدُه خاطئا، حينما نعرض لأراء أخرى في هذا الصدد، وحتى حينما نعرض لحجية القرآن في نفسه.

كرَّر الله عز وجل في القرآن عبارة: "أسماء سميتموها" ثلاث مرات، الأعراف، يوسف، النجم، ولو أن تسمية الله قد كانت من قبيل ذلك، أي من قبيل أسماء سماها العرب القدامى، وجُعلت دالة على شرك أو وثنية، لما جُعلت فيما نعتقد اسما من أسماء الله الحسنى، ذلك أنها تحمل دلالة، ولذلك فإنَّا نرى أن التسمية التي اختص بها الجاهليون هي كلمة "إله" وليس "الله".

من الآثار اللغوية التي نجدها في تسمية "الله" ما جاء في لسان العرب لابن منظور، تحت الجذر اللغوي: "**أ ل ه**" حيث قال: « الإِلَهُ: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَكُلُّ مَا اتُّخِذَ مِنْ دُونِهِ مَعْبُودًا إِلَهٌ عِنْدَ مُتَّخِذِهِ، وَالْجَمْعُ آلِهَةٌ. والآلِهَةُ: الأَصنام[3]، سُمُّوا بِذَلِكَ لِاعْتِقَادِهِمْ أَن الْعِبَادَةَ تَحُقُّ لَهَا، وأَسماؤُهم تَتْبَعُ اعْتِقَادَاتِهِمْ لَا مَا عَلَيْهِ الشَّيْءُ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ بَيِّنُ الإِلَهِةِ والأُلْهانِيَّةِ»[4]

وقال أيضا: « وَفِي حَدِيثِ وُهَيْب بْنِ الوَرْد: إِذَا وَقَعَ الْعَبْدُ فِي أُلْهانِيَّة الرَّبِّ، ومُهَيْمِنِيَّة الصِّدِّيقين، ورَهْبانِيَّة الأَبْرار لَمْ يَجِدْ أَحداً يأْخذ بِقَلْبِهِ أَي لَمْ يَجِدْ أَحداً يُعْجِبُهُ وَلَمْ يُحِبَّ إِلَّا اللَّهَ سُبْحَانَهُ؛ قَالَ ابْنُ الأَثير: هُوَ مأْخوذ مِنْ إِلَهٍ، وَتَقْدِيرُهَا فُعْلانِيَّة، بِالضَّمِّ، تَقُولُ إِلَهٌ بَيِّنُ الإِلَهِيَّة والأُلْهانِيَّة، وأَصله من أَلِهَ يَأْلَهُ إذا تَحَيَّرَ، يُرِيدُ إِذَا وَقَعَ الْعَبْدُ فِي عَظَمَةِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وصَرَفَ وَهْمَه إِلَيْهَا، أَبْغَضَ النَّاسَ حَتَّى لَا يَمِيلُ قَلْبُهُ إِلَى أَحد. الأَزهري: قَالَ اللَّيْثُ بَلَغَنَا أَن اسْمَ اللَّهِ الأَكبر هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ »[5]

الفائدة الثانية في هذا القول هي أصل الكلمة الذي يراه ابن منظور في الفعل تحيّر، ويراه كثير من غيره خلاف ذلك، لكن الذي لم يصل إليه الكتبةُ من المعجميين والنحاة، هو عدم الضبط الدقيق لمعنى الأصل في الكلمة، ولو أن الأمر كان عكس ذلك لما وصلوا إلى كل هذا الاختلاف في التأصيل وإبراز المعنى الأولي.

من ناحية أخرى وجب أن نُثبت على القدماء قولهم في اشتقاق كلمة الله: « رَوَى الْمُنْذِرِيُّ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ أَنه سأَله عَنِ اشْتِقَاقِ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى فِي اللُّغَةِ فَقَالَ: كَانَ حَقُّهُ **إلاهٌ**، أُدخلت الأَلف وَاللَّامُ تَعْرِيفًا، فَقِيلَ **أَلإلاهُ**، ثُمَّ حَذَفَتِ الْعَرَبُ الْهَمْزَةَ اسْتِثْقَالًا لَهَا، فَلَمَّا تَرَكُوا الْهَمْزَةَ حَوَّلوا كَسْرَتَهَا فِي اللَّامِ الَّتِي هِيَ لَامُ التَّعْرِيفِ، وَذَهَبَتِ الْهَمْزَةُ أَصلًا فَقَالُوا **أَلِلاهٌ**، فحرَّكوا لَامَ التَّعْرِيفِ الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا سَاكِنَةً، ثُمَّ الْتَقَى لَامَانِ مُتَحَرِّكَتَانِ فأَدغموا الأُولى فِي الثَّانِيَةِ، فَقَالُوا اللَّهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي»[6]

هذا اشتقاق الكلمة في العربية، والمعنى متفرّق في أجزاء من الشرح، يصعُب الإلمام به وشرحه، ومن ذلك أيضا ما جاء به ابن منظور، قوله:[7] وَلَا يَكُونُ إِلَهاً حَتَّى يَكُونَ مَعْبُوداً، وَحَتَّى يكونَ لِعَابِدِهِ خَالِقًا وَرَازِقًا ومُدبِّراً، وَعَلَيْهِ مُقْتَدِرًا فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَيْسَ بِإِلَهٍ، وإن عُبِدَ ظُلْماً، بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ ومُتَعَبَّد. قَالَ: وأَصل إِلَهٍ وِلاهٌ، فَقُلِبَتِ الْوَاوُ هَمْزَةً كَمَا قَالُوا للوِشاح إشاحٌ وللوِجاح وَهُوَ السِّتْر إِجاحٌ، وَمَعْنَى ولاهٍ أَن الخَلْقَ يَوْلَهُون إِلَيْهِ فِي حَوَائِجِهِمْ، ويَضْرَعُون إِلَيْهِ فِيمَا يُصِيبُهُمْ، ويَفْزَعون إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَا يَنُوبُهُمْ، كَمَا يَوْلَهُ كُلُّ طِفْل إِلَى أُمه. وَقَدْ سَمَّتِ الْعَرَبُ الشَّمْسَ لَمَّا عَبَدُوهَا إِلاهَةً.

والمعنى من القول: "لا يكون إلهاً حتى يكون معبودا" هو نفي الألُوهية عن ما سمته العرب في الجاهلية بالله، وهو تحقيق وثبت قوي للإعجاز القرآني الذي أحدثه حينما نقل منظومة لغوية جاهلية من مفاهيم كانت يُتعارف عليها، وحمَّلها بمحمولات مفهومية جديدة لم تستطع العرب ردها ودحضها.

الغريب في الأمر في تسمية الله التي قال إيزوتسو عنها أنها موجودة منذ الجاهلية، أن الله عز وجل نفسه قال في القرآن العظيم: ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ يوسف 40.

أي أن الله عز وجل ينفي ورود اسم يجمع صفاته في الجاهلية، وأن كل ماورد هو من قبيل الاتفاق الاصطلاحي التشبيهي الذي قال به الجاهليون، وأرادوا أن يثبتوه لأصنامهم، ولذلك قال ابن منظور: إن الأصنام هي الآلهة، وهذا ما يفسر لنا الفرق الجوهري بين كلمة إله، وبين كلمة الله التي لا يختص بها أحد غير الرّب عز وجل، ولا نقول غير ما قاله المازني من أنَّ الله إنما هو اسم هكذا موضوع لله عز وجل، وليس أصله "إله" ولا "وَلاَه"، ولا "لاَه" وحجة المازني في هذا الرأي أن قولنا "الله" له فضل مزية على "إله" وأنه يُعقل بما لا يُعقل بقوله إله.[8]، لذلك يصعب من حيث المبنى إن لم نقل يستحيل أن تنطلق من إله، لتثبت كلمة الله، ذلك أنهما ليستا سواء.

ثم قال المازني أيضا: «قال أبو إسحاق الزجاج: حدثني المبرد عن أبي عثمان المازني قال: ساءلني الرياشي فقال لي: ما أنكرت أن يكون أصل قولنا الله «الإله» فحذفت الهمزة وأدغمت اللام الأولى في الثانية كما أجزت في الناس أن يكون تخفيف الأناس ثم أدغم؟.

قال: فقلت له: من قبل إن الناس على معنى الأناس، وكذلك كل شيء خفف من الهمزة فهو على معناه محققًا. وأنت إذا قلت الإله فلم تعلم الله جل جلاله على معنى إله. فلو كان الله مخففًا من إله لبقي على معناه.»9

4/ الله في اللغة الأكادية:

لم ينتبه المتقدمون من اللغويين والمعجميين للتأصيل لكلمة الله، أو لمعناها من حيث اللغة الأكادية، أو اللغات الأخرى، وذلك ما منعهم عن تحقيق الغاية الأهم، وهي الوصول إلى معنى قار للكلمة، سواء أكان أوليا، أو مفهوما لمفهوم، ولكن ذلك كان ليُغني عن الاختلاف الكبير الذي حضيت به الكلمة بين النحويين واللغويين، من حيث الاشتقاقُ الخاص بها، والمعنى أيضا.

كلمة الله يمكن أن ترد في الأكادية إلى جذرين لغويين أحدهما يبتدأ بحرف الـ e، والآخر يبتدأ بحرف الـ i، ولكن ذلك لم يفرق أبدا في المعنى الذي يدور حوله الجِذران.

ومن ذلك أن: الله أو الإله أو مايقرب جذرهما في اللغة الأكادية هو:[10] illilu، وهو إله ذو مركز عال، وجاء في مواضع أخرى ما يلي:[11]

illilatu: إلهة ذات مركز علوي.

ilu:[12] إله، معبود، الإله، الإشارة إلى إله معين.

يتفق المعنى الأخير في الأكدية مع المعنى الذي أورده ابن منظور في اللسان، فلقد ذكر أن الله أو الإله لا يكون إلا معبودا، ولا يكون ذلك بطلانا، ومن هنا فالسمة التي حملها القرآن للكلمة جعلها من التسميات الباهرة التي لم يُعرف لها أثر من قبل، ولم يسمَّ أحد بكلمة الله من ذي قبل، والله عزَّ وجل هو الذي تفرد بهذا، ولذلك قال المازني إن أصلها غير ما أورده النحويون واللغويون من حيث الاشتقاقُ، ولذلك قال أيضا إن لتسمية الله فضل مزية على إله.

أما إذا ما خصصنا الحديث عن معنى الله في الأكدية، على اعتبار التعدد المعنوي الذي ورد فيها، فإننا سنجد أن أكثر المعاني تداولا وشيوعا هو العلو والارتفاع، إن الله في الأكدية معناه الرب العالي، وكذلك في العبرية أيضا، ذلك أن الجذور اللغوية el أو eli أو elen في الأكدية تعني كلها: على و فوق، وأعلى، وعلوي.

في نفس السياق نجد الآية القرآنية تقول: ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً** ﴾ التوبة 8.

إن التفسير الاشتقاقي لكلمة "إلا" ههنا يعطينا بالضبط المعنى المعجمي الأول-إن صح التعبير- لكلمة الله، ذلك المعنى الذي ينبغي أن يتطابق بين الأكدية والعربية، باعتبار تطابق الجذر: ilu في الأكدية، و **إلاً** في العربية، هذا المعنى الذي غاب عن المعجميين العرب،

إن كلمة "**إلاًّ**" في الآية الكريمة تعني الله، وجاء هذا في تفسير البغوي: «{ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** (8)}.

قَوْلُهُ تَعَالَى: {**كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ**} هَذَا مَرْدُودٌ عَلَى الْآيَةِ الْأُولَى تَقْدِيرُهُ: كَيْفَ يَكُونُ لَهُمْ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ [كَيْفَ] (1) وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ! {**لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً**} قَالَ الْأَخْفَشُ: كَيْفَ لَا تَقْتُلُونَهُمْ وَهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ أَيْ: يَظْفَرُوا بِكُمْ، لَا يَرْقُبُوا: لَا يَحْفَظُوا؟ وَقَالَ الضَّحَّاكُ: لَا يَنْتَظِرُوا. وَقَالَ قُطْرُبٌ: لَا يُرَاعُوا فِيكُمْ إِلًّا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: قَرَابَةً. وَقَالَ يَمَانُ: رَحِمًا. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْإِلُّ الْحِلْفُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ الْعَهْدُ. وَكَذَلِكَ الذِّمَّةُ، إِلَّا أَنَّهُ كَرَّرَ لِاخْتِلَافِ اللَّفْظَيْنِ. وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ وَمُجَاهِدٌ: الْإِلُّ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَكَانَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ يَقْرَأُ: "جَبْرَ إِلِّ" بِالتَّشْدِيدِ، يَعْنِي: "عَبْدَ اللَّهِ". وَفِي الْخَبَرِ أَنَّ نَاسًا قَدِمُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْ قَوْمِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، فَاسْتَقْرَأَهُمْ أَبُو بَكْرٍ كِتَابَ مُسَيْلِمَةَ فَقَرَؤُوا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ إِلٍّ، أَيْ: مِنَ اللَّهِ.**

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ قِرَاءَةُ عِكْرِمَةَ "لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ **إِيلًا**" بِالْيَاءِ، يَعْنِي: **اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ**. مِثْلَ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ. وَلَا ذِمَّةً أَيْ: عَهْدًا. {**يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ**} أَيْ: يُعْطُونَكُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ خِلَافَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ، {**وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ**} الْإِيمَانَ، {**وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ**} .

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا فِي الْمُشْرِكِينَ وَكُلُّهُمْ فَاسِقُونَ فَكَيْفَ قَالَ: {**وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ**}[13]

ومنه قال أبو بكر رضي الله عنه، الإلُّ هو الله، وقال عِكرمةُ بذلك أيضا، ولذلك كان أوجب أن يَستحضِر النحويون والمعجميون معنى العلو، والارتفاع، والسمو، والمقصود به الرب العالي، والإله المتعال، ولكنهم ذهبوا في ذلك مذاهب اشتقاقية عدة، حتى لم يُتبين للناس أيها أصح، وأيها يفكُّ الالتباس والغموض.

خاتمة:

تتضمن تلخيصا لما ورد في مضمون البحث، مع الإشارة إلى أبرز النتائج المتوصل اليها، وتقديم اقتراحات وتوصيات.

جاء هذا البحث لتبيان العلاقة بين اللغة في الجاهلية والإسلام، أو بتعبير أدق لتبيان ما حقَّقه القرآن الكريم في العربية مما يسمى بالجهاز الاصطلاحي والمنظومة المفهومية، اللذان كانا غائبين عن الساحة الفكرية في الجاهلية، لا لشيء إلا لغياب مفهوم العلم نفسه، هذا من جهة.

من ناحية أخرى، وفي إطار المنظومة المفهومية نقل القرآن كثيرا من المصطلحات من معناها في الجاهلية، إلى مفاهيم قرآنية خالصة، للغاية القصوى الوحيدة، وهي تحقيق الإعجاز ومجابهة العرب بنفس لغتها ومفرداتها، ولا شك أن قولنا هذا سيدفعنا إلى القول أيضا بأن تحقيق الإيمان ههنا، سيحتِّمُ المرور على اللغة أولا وتحقيق الإعجاز فيها، ولذلك ما فتئ القرآن يُحدث ذلك في مصطلحات عرفتها العرب في الجاهلية، ونقلها ليحمِّلها بمحمولات مفهومية دينية، سنقول ههنا كأمثلة معلومة معروفة، الصلاة، والزكاة، والصوم، وغيرها.

من أهم النتائج المتوصل إليها في البحث ما يلي:

1/ الجهاز الاصطلاحي والمنظومة المفهومية مصطلحان لم يظهرا عمليا إلا بوجود القرآن الكريم، وظهور العلوم في العربية دينية/ لغوية.

2/ لا يُنتفى وجود المصطلح في الجاهلية، ذلك أن القرآن نهل منها، لكن غياب مفهوم العلم الذي استبدل بمفهوم الشعر كمدونة عامة، هو الذي منع من تحقيق منظومات مفهومية ترتب فيها المصطلحات الواحد تلو الآخر من حيث مفهومُها، على الرغم من أن البيئة كانت واحدة موحدة في الجاهلية والإسلام، وتحمل نفس الخصوصيات البيئية، والحضارية، وغيرها.

3/ مكمن إعجاز القرآن هو في لغة الجاهليين نفسها، لقد نهل منها، واستحدث مفاهيمها، وأثبت خطأ بعضها مفهوميا، ولا أدلَّ على ذلك من مصطلح الله الذي اعتقده الجاهليون.

قائمة المراجع: [1]

البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1997، ج4.

ابن منظور جمال الدين بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414، ج13.

الزجاجي عبد الرحمان بن إسحاق، اشتقاق أسماء الله، تحقيق عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، ط2، 1986.

علي ياسين الجبوري، قاموس اللغة الأكدية–العربية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، د ن، د ط، د ت.

أبو حاتم الرازي، الزينة في الكلمات الإسلامية، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط1، 1994.

عبد الصبور شاهين، عربية القرآن، مكتبة الشباب، مصر، د ط، د ت.

الهوامش:

[1] أبو حاتم الرازي، الزينة في الكلمات الإسلامية، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط1، 1994، ص 22.

[2] عبد الصبور شاهين، عربية القرآن، مكتبة الشباب، مصر، د ط، د ت، ص 8.

[3] جاء في كتاب الله والإنسان في القرآن للكاتب الياباني توشيهيكو إيزوتسو القول إن الله كلمة مأخوذة من الجاهلية، وكانت يُعرف لها معنى آنذاك، لكنّا نعتقد أن ما خصّه القرآن بها لم يكن كذلك، على اعتبار التطوير في الدلالة والاتساع فيها، أو تخصيصها وما إلى ذلك.

[4] ابن منظور جمال الدين بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414، ج13، ص 467، مادة أله.

[5] المرجع نفسه، ص نفسها.

[6] نفسه، ص نفسها.

[7] نفسه، ج13، ص 468.

[8] الزجاجي عبد الرحمان بن إسحاق، اشتقاق أسماء الله، تحقيق عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، ط2، 1986، ص 29.

[9] المرجع نفسه، ص نفسها.

[10] علي ياسين الجبوري، قاموس اللغة الأكدية–العربية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، د ن، د ط، د ت، ص 216.

[11] المرجع نفسه، ص نفسها.

[12] نفسه، ص نفسها.

[13] البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1997، ج4، ص 15.